القدَر والمقدّر

الاعتقاد بالمقدّر من أهمّ الاعتقادات التي أثرت في حياة البشر في الأعصر الغابرة . وهو لا يزال متملكاً على افكار ابناء اليوم وان اختلفت كيفية اعتقادهم باختلاف مذاهبهم وآرائهم في عواقب الانسان . وتقسم هذه المذاهب الى ثلاثة اقسام : الماديّون والقائلون بمذهب جمع الكائنات (الوهية العالم) (Panthéistes) والروحيون

فالماديون يعتقدون ان الانسان ليس الاّ مجموع اجزاء كيماوية تحلّ بالموت ثم تتفرّق دقائقها ، وتنضم الى اجرام اخرى فتصير لها ومنها . وعندهم ان لكل واحدٍ من البشر ان ينتقي لحياته غاية ترمي اليها اغراضه ، وتطمح للوصول اليها افكاره ، وتوقف عليها اتعابه وآماله . اما قيمة الحياة فتتعلّقة بفضل صاحبها ، وهي تقاس بما تجلبه على العالم من الخير — او الشر ؛ ولا يعبّر عنها عند الماديين الاّ باللذة والألم . العلم الوضعي يحسب كل ما يراه ظواهر طبيعية ونتائج حركات آليّة تتشابه كلها في نظره ، فلا تفرق ماهيّتها الاّ بواسطة الحسّ ، فيسمي الماديون ما يسرّهم خيراً ، ويدعون ما يؤلمهم شرّاً ؛ وهم مع ذلك يؤثرون — نظرياً — خير المجموع على خير الفرد

اما القائلون بالوهية العالم فيعتقدون ان كل جرمٍ من أجرام الخليقة هو شكل بارز عن الجوهر الالهي المنتشر في طبقات الكون ، وان الروح بعد انفصالها عن الجسد تعود الى ذلك الجوهر العظيم كما يعود

الجسد الى المادة الكلية التى تكوّن منها . وكان فيثاغورس وافلاطون وغيرهما من فلاسفة الماضي يعتقدون بالتقمص (Métempsycose) ولا يزال الهنود والدروز الى ايامنا الحاضرة يعتقدون هذا الاعتقاد . وسواء غرقت الروح في بحر الحياة الكلية أم سكنت جسداً آخر ، فان الشخصية الحقيقية تنتهي عند عتبة القبر . فلهم ، والحالة هذه ، ان يعملوا في حياتهم كل ما يؤول الى سرورهم وارتياحهم دون افادة الغير . بيد ان ذوي الأخلاق الكريمة منهم يسعون في نفع الجمهور ما استطاعوا

والروحيّون يؤمنون بأن الروح ابدية لا تفنى ، وانها تحفظ بعد الموت ذاكرتها وسائر مميزات شخصيتها الجوهرية . هي لا تموت لأنها شعلة من روح مبدعها العظيمة ، فهي تعمل الحسنات وتسير في طريق الصلاح ، وتفيد وتستفيد ، وتُضحّي من لذتها وراحتها شيئاً كثيراً بقصد الوصول الى المصدر الالهي السامي والتمتع بغبطة لا نهاية لها

مهما تعدّدت المذاهب والمشارب فقد أجمع البشر على ان هناك قوة تدير حركة العالم ، ولكنهم اختلفوا في تسميتها . يسميها بعضهم « عناية » او « ارادة الهية » ، وينعتها آخرون بالـ (Déterminisme Universel) وقد اصطلح الجميع على التعبير عنها بكلمة « قضاء » او « قدَر »

*
* *

وضع الأقدمون « القدَر » فوق جميع الالهة . وهو في علم اديانهم (Mythologie) ابن « العدم » و « الظلمة » وهما الالهان الوحيدان اللذان لم يكن لهما ابتداء ، ولكنهما انتهيا اذ ان « العدم » اضمحلّ في

الخليقة كما ان « الظلمة » تلاشت في النور . « المقدّر » يقبض بيده على حظوظ البشر ، ويحكم فيهم كيفما شاء . وفي الخرافات القديمة أن اوامره منقوشة على صفحات من نحاس ، ولا قوة ارضيّة تستطيع ان تمحوَها او تغيّر منها شيئاً . كانوا يصوّرونه شيخاً طاعناً في السن كفيف البصر ، وتحت قدميه الكرة الأرضية وعلى رأسه اكليل من نجوم ، دلالة على خضوع السماء له . يسراه تمسك القارورة المحتوية على حظوظ البشر ، ويمناه تقبض على عصا من حديد اشارةً الى سطوته وقدرته المطلقة ، وقساوته وصلابته في احكامه

وقد جاء في الياذة هوميروس ان جوبيتير كان قد أراد انقاذ هكتور من شر آخيل ، على انهُ لما وزن حظّيهما ورأى ان هكتور سيموت لا محالة تركه وشانه . وكذا فعل « ابولّون » الذي كان يرافقه في غدواته وروحاته ويمده بالمساعدة ، فانهُ ابتعد عنه لعلمه أن القدَر لا يُعاند

توالت القرون وسبحت الافكار في فضاء واسع من الحرية العلمية فتناول الفلاسفة هذا الموضوع ودرسوه درساً مدققاً فنفوا وجود الهة عمياء تلقي على البشر صواعق غضبها ونقمتها بحسب أهوائها ، ونسبوا « القدَر » الى نواميس ثابتة وعلاّت رياضية تأتي بالنتائج التي ندعوها « قضاء وقدراً » . وقال « ارسطو » ان الاقدار ناجمة عن قوتين : قوة خارجية ، وقوة داخلية اي آتية من نفس الانسان . وكان جميع المفكرين الذين سبقوا ديكارت يقولون بوجود سلسلة علات آلية هي أساس النظام الكلّي . ثم جاء ذلك الفيلسوف الفرنساوي وثبّت هذه القاعدة ،

وأخرجها من دائرة المعقولات وأدخلها في دائرة الفلسفة الرياضية اذ شرحها شرحاً رياضياً ، وأسندها الى قواعد علمية رأسها القاعدة التي تستند اليها جميع العلوم الطبيعية ، وهي ان لا شيء يموت بكل معنى الكلمة ، ولا شيء يحيا ، بل ان الموت كالحياة ليس الا تقلب المادة من حال الى حال بحكم النواميس الابدية التي تديرها ، وانهُ لا بداية للكون ولا نهاية له ، بل ان كل حركة نراها انما هي الاَّ نتيجة حركة اخرى سبقت وهي تابعة لحركة او لحركات تقدمتها . وفي العلوم الوضعية أن كلّ ما في الكون حركات متتابعة متوالية ، وأن كل حركة « فسيولوجية » تعقبها فينا نتيجة « بسيكولوجية » او «فسيولوجية» . فالهضم مثلاً نتيجة الاكل ، والغذاء نتيجة الهضم ، والدورة الدموية نتيجة الغذاء ، وانتظام الدماغ نتيجة الدورة الدموية ، والفكر نتيجة انتظام الدماغ . فلو لم تنتظم الدورة الدموية في اجسام « روجر بايكن » و « البرت كريسي » و « شورتز » ما عرفت اوروبا البارود ولا قُتل بهِ الوف الجنود وملايين المحاربين . ولو لم تنتظم حركة القلب عند مخترع التلغراف اللاسلكي لما خلصت الباخرة « كربائيا » النفوس التي انتشلتها من الباخرة «تيتانيك» كما انه لو أصاب مخترعي السفن مرض ما ، لما سارت السفن في البحار ولا غرقت الملايين فيها . وقس على ذلك . لا شيء يستطيع الخروج من دائرة النظام العلمي وهذا النظام هو قدر الأقدمين الفلسفي بعينه

* * *

أجل ان النواميس تظلّ ثابتة لا تتغير . الأجرام الكبيرة تسقط

الى الأرض بقوة الجاذبية ، ولا تقدر ان تسبح في الجو ما لم يكن هناك من المواد الكيماوية ما يساعدها على معادلة ميزانيتها الطبيعية . شجرة التفّاح لا تستطيع ان تحمل عناقيد العنب ، كما ان الدوالي لا تثمر موزاً ، وكل ما في الكون مرتب محدود . يقول ڤولتر : « قُدّر على الانسان ان يكون له عددٌ محدود من الاسنان والشعر والافكار ؛ وقُدّر عليه ان يأتي يوم بهِ تسقط اسنانه ، ويقع شعره ، وتتلاشى افكاره . »

ثم يتابع كلامه قائلاً : بعض البلهاء يقول : « ان طبيبي البارع قد شفى عمتي من مرضها الخطر ، وزاد في حياتها عشر سنوات »

« تقول ، أيها الأبله ، ان طبيبك شفى عمتك من مرضها ، ولكنهُ بفعله هذا ، لم يغلب ارادة الطبيعة ولم يعاكسها بل اتبّعها . قُدّر على عمتك ان تولد في هذه البلدة ، وان تمرض في يوم كذا بمرض كذا ، وقُدِّر على الطبيب ان يسكن في هذه البلدة ، وان تدعوَه عمتك اليها ، وان يلبّي طلبها ، وان يعطيها العلاج الذي شفاها . هكذا شاءت الظروف الجارية بأحكام الناموس الأبدي »

« الفلاّح الجاهل يظن ان الجوّ أمطر حقله اتفاقاً ولكن الفيلسوف يعلم ان الصدفة اسم بلا مسمّى . وانّ التراكيب الجوّية أوجبت وقوع المطر على تلك البقعة في ذلك اليوم »

« من الناس من تخيفهم هذه الحقائق فيقولون ان بعض ما في الكون ضروري ، والبعض الآخر ليس الاّ حوادث وعوارض . وأنا اجيبهم انهُ لمن المضحك ان يكون نصف الكون مرتّباً وتابعاً لنواميس

ونظامات ، وان يكون النصف الآخر مهملاً . عند ما يتأمل المفكر ويبحث في دقائق هذا الموضوع يرى ان كل مبدإ يخالف الإقرار بالمقدّر لهو مبدأ مستهجن

« لكن يُحكم على بعض الناس ان يفهموا قليلاً ، وعلى آخرين ان لا يفهموا مطلقاً ، وعلى غيرهم ان ينتقدوا الذين يفهمون وان يضطهدوهم»

ص

خواطر

* خلق الله العالم كله واستراح ، وخلق الله الرجل واستراح ايضاً ؛ ثم خلق المرأة ومذ ذاك لا استراح هو ، ولا استراح الرجل « رأي اميركاني »

* لا طريقة لايقاف تأثير الجرائد الا في تكثير عددها ؛ واني لمتعجب كيف ان حقيقة راهنة كهذه لا تزال مجهولة « توكفيل »

* خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل

« الامام علي »

* أُحبُّ حرية الصحافة باعتبار ما تمنعهُ من المضارّ ، اكثر مما أحبها باعتبار ما تجلبه من المنافع « سنت بري »

* انما ينشئ الجريدة مشتركوها لا محرروها « جيراردين »